الفصل السادس

قال الشيخ : ليالي العارفين كلها قدر ، وقال الجنيد : تنام عيوننا ولا تنام قلوبنا . وفي لقائنا الأخير تحدثنا عن انكشاف الأمر للعارف عن حقيقة وجود المعية الإلهية في النفس البشرية ، وإليك هذه الرؤيا التي تزيد في شرح ذلك .

رأيتني في طريقي إلى وزارة الاعلام ، ثم توقفت عن المشي وفكرت وقفلت راجعاً إلى بيتي ، ثم وجدتني نائماً مع زوجتي وزوجتي تلامسني ، أي أنها كانت تقوم بدور معاكس . وفتح الباب فجأة ودخلت شقيقتي واسمها هبة وبسطت سجادة وجعلت تصلي صلاة الفجر فحال حضورها دون إتمام النكاح واستيقظت .

شعرت بالخجل والشيخ يقص علي رؤياه ، ولما التقت عيوننا علم هو نظرتي فقال : لا تعجب لقولي ، فابن عربي أعلن أنه نكح النجوم بلذة عظيمة وكذلك نكح الحروف ، والنكاح سنة رسولنا عليه السلام ، وهو القائل : تناكحوا تكاثروا فإني مباه بكم الأمم يوم القيامة ..

والطريق إلى وزارة الاعلام رمز إلى طلب العلم عن طريق الكتب ، والتوقف عن السير والعودة إلى البيت إشارة إلى الوصول إلى مرحلة الفتح المحددة برؤية ليلة القدر .

ووجودي مع زوجتي ، واسمها سميرة ، في الفراش إشارة إلى اسمه الهادي ، فهذا الاسم سمير الإنسان ، ولقد سمي في عصرنا بالضمير ، والضمير المضمر ، وهو نور يهدي الله به من يشاء من عباده . . وهذا الاسم من الأسماء المزدوجة مثل المعز المذل والرافع الخافض . فاسم الهادي يقتضي لفظه مع تضاده وهو اسم المضل . . وفي الفتح يتم كشف حقيقة توحيد التضاد بين الاسمين ، فللتضاد سر هو سر الربوبية . وأما كون زوجتي هي التي تنكحني فإشارة إلى فعله تعالى في الخلق ، والنكاح ملامسة أو مسّ أو التصاق ، والمهم أنه يتبين للعارف عن طريق توحيد التضاد وجود الله تعالى في ذاته ، وكون هذه الذات الإلهية سميرة له عن طريق الإلهام والوحي والخاطر . قال تعالى : ﴿ وهو معكم أينما كنتم ﴾ ، وقال : ﴿ وهو أقرب إليكم من حبل الوريد ﴾ ، وقال : ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا ﴾ . فالمعية مثبتة في كتاب الله . والمهم أن هذه المعية تكون محجوبة بحجاب الأسماء ، وفي ليلة فض بكارة الضدية ينكشف الستار عن المستور فإذا وجود الله في الإنسان بلا حلول ولا اتحاد بل معية رمز إليها بالتداني .

ولما كان القلب أسير الخاطر ، والفعل نتيجته ، ولهذا كان الإنسان مركبة الله قائدها على الحقيقة . ولهذا رأيت في الرؤ يا أن زوجتي هي التي تنكحني . فآدم وإن كان فاعلاً من الوجه الظاهر إلا أنه منفعل عن الوجه الباطن . ودخول شقيقتي هبة كون انكشاف هذه الحقيقة هبة من الله تعالى للعارفين في ليلة القدر . وصلاة أختي رمز لوجود الصلة بين الله والإنسان على سجادة الصوف الرامزة إلى عالم الحيوان .

وهذا المقام ثقيل يا بني ، ويقال له الجمع ، والجمع محو صفات العبد وتثبيت صفات الحق . فالإنسان قبل الفتح يظن فكره فكره وما هو فكره بل فكر الهو المتصرف فيه . إذن لقد حدث ما يشبه عملية سطو على الفكر في ليلة القدر فما عاد الفكر ذاتياً بل إلهاماً متصرفاً في الذات يميناً وشمالاً بقدرته تعالى .

والملامسة في النكاح وكون السمير هو الفاعل دل على هذا ، وهنا عد العارف نفسه قد انقلب شبحاً بحق ، وأن وجوده قد صار ظلاً أمام سطوع

شمس الفكر الحقيقية. فلقد كان اعتماد العارف قبل الفتح عليه ، ثم صار اعتماده على ربه بعد أن تبين أن هذا التوكل واقع طوعاً أو كرهاً .

والله تحدث عن مكره ، وحديث المكر طويل ، والمهم أن المكر يقع حيث يظن الإنسان أن نفسه تملأ ساحة ذاته وأن التضاد من شيم النفوس ، فإذا شمس الفتح تثبت أن النفس الفاعلة مفعول بها ، وأنها ساكنة ، وأن لله الأمر من قبل ومن بعد ، وأن له العالمين الملك والملكوت .

هذه المعية وانكشاف سرها للعارفين دوخت العارفين وأطاشت عقولهم . فكون الإنسان ظلاً في نفسه وضيفاً في مسكنه أشبه بمن اكتشف فجأة مصادفة أن بيته الذي يملكه ليس ملكه وأنه مستأجر وأن المالك هو الله على الحقيقة . والتحير بين الشمس والظل ، بين الواجب بذاته والممكن بذاته ، بين اللامتناهي والمتناهي ، هذا التحير كم ضيع من سالكين على درب الفتوح . فوجود الذات الفردية صار لدى الكشف إضافياً أو هامشياً بلغة الكتابة ، والله هو الذي ملأ القلب حضوراً وعياناً .

أنشد ابن عربي :

رأيت ربي بعين ربي فقلت ربي فقال أنت

وقال : إذا وصلت إلى نفسك عرفت من أنت ، وإذا عرفت من أنت عرفت ربك فتسلم عند ذلك هل أنت هو أو لست هو ، فإنه يحصل لك هناك العلم الصحيح .

وأنشد عارف :

ومن العجائب أن أكون مسائلا عن حاضر ما زلت أبصره معي
مشواه في قلبي ونور جماله في ناظري وحديثه في مسمعي

وأنشد الحلاج :

بيني وبينك إني تزاحمني فأرفع بفضلك أنيي من البين

وأنشد أيضاً :

عجبت منك ومني يا منية المتمني
أدنيتني منك حتى ظننت أنك أني
وغبت في الوجد حتى أفنيتني بك عني

obeikandl.com